المحاضرة الثانية
الأصل التاريخي للبلاغة العربية

قد آثرنا أن نؤخر الأصل التاريخي عن الأصل المفاهيمي ،حتى يكون للقارئ لمحة عن مفهوم هذا العلم ،وعن كل ما يتعلق به، فيستطيع بذلك أن يلج كتب اللغة والأدب ويمحصها مستكشفا بذلك كل ما يمكن أن يضمه في خانة البلاغة العربية.

ونحن سنتتبع نشأة البلاغة العربية وتطورها انطلاقا من العصور الأدبية المعروفة،و بعدها يمكننا أن نطرح بدائل في عملية التقسيم قد لا تستند على ميزان العصر بقدر ما تستند على أشياء أخرى.

1- العصر الجاهلي:

لقد خص العرب بالفصاحة والبلاغة،و كانت هذه المزية موطن العز وأساس الافتخار وصفهم الله تعالى بذلك فقال" وَإِنْ يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ [1] ".

ولهذا، فقد كانت نظرتهم إلى الفن عموما ،وإلى الشعر خصوصا ،نظرة ذوقية، مستمدة روحها من الإحساس المرهف، والشعور الرقيق الذي يمكنه من تمييز الأشياء ،والحكم على الجيد والرديء منها على حد سواء،"فلقد عاش الجاهلي مرحلة بدائية من التفتح على الحياة ، بعيدة عن المشاكل الفكرية المعقدة والتطلعات الماورائية الصعبة،فكان هاجسه الأساسي الإفصاح والتبليغ، وكان يتلمس قدرته على استخدام اللغة تماما كما كان يتلمس قدرته على استعمال السيف، وصارت الفحولة الأدبية موازية للفروسية القتالية، تقومان معا على توخي قصب السبق"[2]

ولم يحتفل العرب بشيء في حياتهم احتفالهم بكلامهم وما يدور حوله فاحتفلوا بالشعر"القصيدة" كما احتفلوا بالشاعر

فمما أثر عليهم في احتفالهم بالقصيدة أن من الشعراء"من كان يدع القصيدة تمكث عنده حولا كريتا(كاملا) وزمنا طويلا يردد فيها نظره، ويجيل فيها عقله ويقلب فيها رأيه،اتهاما لعقله،وتتبعا على نفسه،فيجعل عقله زماما على رأيه،ورأيه عيارا على شعره"[3]

كما أثر على أحدهم قوله:أننا"لم نرهم يستعملون مثل تدبيرهم في طوال القصائد وفي صنعة طوال الخطب....وكانوا إذا احتاجوا إلى الرأي في معاظم التدبير ومهمات الأمور ميثوا(ذللوا)الكلام في صدورهم وقيدوه على أنفسهم،فإذا قومه الثقات وأدخل الكير وقام على الخلاص أبرزوه محككا منقحا ومصفى من الأدناس مهذبا"[4]

كما وصفوا شعرهم وخطبهم بعديد الصفات التي توحي بالجودة ومنها :الحوليات والمقلدات والمنقحات والمحكمات،كما وصفوا كلامهم بالحلل والديباج وأشبه ذلك

وأما احتفاؤهم بالخطباء والشعراء فيبدو من خلال تلك الألقاب التي أطلقت عليهم ولذلك سمو المهلهل والمرقش والمثقب والمنخل والمتنخل والأفوه والنابغة،كما أطلقوا على خطبائهم عددا من الصفات تدل أيضا على الإجادة فوصفوهم بأنهم مصاقع لسن، ووصفوهم باللوذعية.

---

[1] المنافقون4
[2] على مهدي زيتون ،إعجاز القرآن وأثره في تطور النقد الأدبي ص 100
[3] الجاحظ،البيان والتبيين ج2،ص9
[4] نفسه ج2،ص14

وأكثر من هذا فقد وضع العرب محاكم بلاغية يعرض فيها الشاعر كلامه ويرى النقد يطاله،وكانت سوق عكاظ بجوار مكة محفلا بلاغيا تعرض فيه العرب"أشعارها على قريش،فما قبلوه منها كان مقبولا،وما ردوه منها كان مردودا،فقدم عليهم علقمة بن عبدة التيمي،فأنشدهم قصيدته التي يقول فيها:

هل ما علمت وما استودعت مكتوم أم حبلها أن تأتك اليوم مصروم

فقالوا:هذا سمط الدهر،ثم عاد إليهم العام المقبل،فأنشدهم:

طحابك قلب في الحسان طروب بعيد الشباب عصر حان مشيب

فقالوا هاتان سمطا الدهر"[5]

وقد عملت الفطرة العربية الخالصة والذوق العربي في ذلك على صقل ذات الشاعر الناقدة، فجعلت منها أداة تمييز لا تحتاج إلى تعليل أو تبرير، ولهذا فقد كان سوق عكاظ وغيره ميدانا يتسابق فيه محترفوا الشعر ليلقوا قصائدهم على أباطرة الفن وعمالقة الإحساس، والذين يتزعمهم النابغة الذبياني ،كما كانت روح الناقد متسقة مع روح الشاعر وموافقة له إذ الشعر وقتها"إحساس محض أو يكاد والنقد كذلك كلاهما قائم على الانفعال والتأثير فالشاعر مهتاج بما حوله من الأشياء والحوادث والناقد مهتاج يوقع الكلام نفسه وكل نقد في نشأته لا بد من أن يكون قائما على الانفعال بأكثر الكلام المنقود"[6]

لقد احتل الذوق مكانا مرموقا كونه"الملكة التي لا غنى لأي ناقد عنها،لأنها تمكنه من التعرف على مواطن الجمال والقبح فيما يعرض له من النصوص.عند سماعها أو قراءتها،ويستطيع بعد ذلك أن يقف عندها ويتبين أسرارها،ثم يعلل له بما أوتي من العلم والمعرفة،والإحاطة بجوانب الموضوع،وبما أوتي كذلك من قدرة على التعمق،والتحليق،والاكتشاف"[7]

ويمكننا أن نمثل لذلك بما ترويه كتب الأخبار وما تتداوله من أشعار،فهذا النابغة الذبياني كانت تضرب له قبة في سوق عكاظ يأتيه العرب من كل حدب وصوب ينسلون،ولتقييم أشعارهم يريدون،وقصته مع حسان بن ثابت والخنساء من أشهر ما وصلنا .

جاء في كتاب الأغاني :" أن نابغة بني ذبيان كان تضرب له قبة من أدم بسوق عكاظ يجتمع إليه فيها الشعراء؛ فدخل إليه حسان بن ثابت وعنده الأعشى وقد أنشده شعره ، وأنشدته الخنساء قولها:

"قَذىً بِعَينِكِ أَم بِالعَينِ عُوّارُ ...

حتى انتهت إلى قولها:

وَإِنَّ صَخراً لَتَأتَمَّ الهُداةُ بِهِ ... كَأَنَّهُ عَلَمٌ في رَأسِهِ نارُ

وَإِنَّ صَخراً لَمولانا وَسَيِّدُنا ... وَإِنَّ صَخراً إِذا نَشتو لَنَحّارُ

-ومعنى البيتين أن صخرا إمام للناس يأتمون به ويهتدون بهديه ، كأنه جبل على قمته نار مشتعلة فلا تخفى على أحد (وهذا البيت صار مثلا بعد ذلك كما يقولون : فلان أشهر من نار على علم)

وتقول في البيت الثاني أن صخرا مولاهم وسيدهم ، وأنه كريم فمتى يأتي على الناس الشتاء ببرودته وصقيعه ، يكثر من نحر وذبح الذبائح لضيوفه-

فقال: لولا أن أبا بصيرٍ – يقصد الأعشى - أنشدني قبلك لقلت: إنك أشعر الناس!! ...

---

[5] الأصفهاني:أبو الفرج،لأغاني ،تح:إحسان عباس وآخرون،دار صادر ،بيروت،ط3(1429ه، 2008م) ج21، ص 144.

[6] طه إبراهيم، تاريخ النقد الأدبي عند العرب حتى القرن الرابع هـ 29

[7] محمد زغلول سلام،تاريخ النقد الأدبي والبلاغة،دار المعارف،الاسكندرية،ط3، ص 16،17

فقال حسان: أنا والله أشعر منك ومنها.
قال: حيث تقول ماذا؟
قال: حيث أقول:
لَنا الجَفَناتُ الغُرُّ يَلمَعنَ بِالضُحى ... وَأَسيافُنا يَقطُرنَ مِن نَجدَةٍ دَما
وَلَدنا بَني العَنقاءِ وَاِبني مُحَــرَّقٍ ... فَأَكرِم بِنا خالاً وَأَكرِم بِذا اِبنَما
-ومعنى البيتين أن حسان رضي الله عنه يفخر بقومه وكرمهم ،وأن لهم جفان ضخمة أي أوعية ضخمة للطعام ، تنصب في الضحى ليأكل منها الناس، وفي الوقت نفسه فهم شجعان وأسيافهم تقطر دما من كثرة نجدة الناس ، ثم يفخر بأنهم أخوال لهذين الحيين (بني العنقاء) و (ابني محرق) فأكرم بهم أخوالا وأكرم بهم أبناء
وكلمة (ابنما) تعنى ابن ، ويجوز زيادة (ما) فيها-.
فقال: إنك لشاعر لولا أنك قللت عدد جفانك وفخرت بمن ولدت ولم تفخر بمن ولدك.
وفي رواية أخرى: فقال له: إنك قلت " الجفنات " فقللت العدد ولو قلت " الجفان " لكان أكثر. وقلت " يلمعن في الضحى " ولو قلت " يبرقن بالدجى ". لكان أبلغ في المديح لأن الضيف بالليل أكثر طروقاً. وقلت: " يقطرن من نجدة دماً " فدللت على قلة القتل ولو قلت " يجرين " لكان أكثر لانصباب الدم. وفخرت بمن ولدت ولم تفخر بمن ولدك. فقام حسان منكسراً منقطعاً"[8]
"فنقد النابغة لحسان نقد سديد ويتصل بالبلاغة بصلة ما،لأن حسانا لم يجمع الجفنات والأسياف جمعا يدل على الكثرة،والعرب تستحب المبالغة في مواطن الفخر بالكرم والشجاعة"[9]
وما يروى أيضا عن زوجة امرئ القيس-أم جندب- التي عرض عليها أن تحكم بين زوجها وعلقمة الفحل،فحكمت للأخير وقالت لزوجها :علقمة أشعر منك فقال :كيف؟ فقالت: أنت تقول:
فللسوط ألهوب وللساق دِرّة وللزجر منه وقعُ أخرجَ مُهذِب
فجهدت فرسك بسوط في زجرك،ومريته فأتعبته بساقك ،وقال علقمة:
فأدركهن ثانيا من عنانه يمر كمر الرائح المتحلب[10]
فأدرك فرسه ثانيا من عنانه لم يضربه ولم يتعبه"[11]
ومعنى بيت امرئ القيس أنه إذا مس فرسه بساقه ألهبه الجري، أي جريا شديدا كالتهاب النار، وإذا مسه بسوطه در بالجري كما يدر السيل والمطر، وإذا زجره بلسانه وقع الزجر منه موقعه من الأهوج الذي لا عقل له
وأما علقمة فهو يصف فرسه بأنه سريع الجري، وأنه لم يُضرب ليجري وإنما كان يثني له عنانه أو لجامه، فهو سريع يمر مثل السحاب.
كما أثر على مدرسة زهير بن أبي سلمى"وهي مدرسة كانت تجمع إلى الشعر روايته...وهي مدرسة لم تكن تمضي في نظم الشعر عفو الخاطر،بل كانت تتأنى فيما تنظم منه،وتنظر فيه

---

[8] الأصفهاني:أبو الفرج،لأغاني،ج9 ص 251،252
[9] عبد القادر حسين، أثر النحاة في البحث البلاغي،دار غريب للطباعة والنشر،القاهرة،مصر ،1998، ص38
[10] الرائح معناه: سحاب العَشِي. المتحلب :المتساقط.
[11] المرزباني:أبو عبيد الله محمد بن عمران،الموشح، تحقيق علي محمد البجاوي،دار الفكر العربي،مصر36

وتعيد النظر مهذبة منقحة،وقد وصف الأصمعي قطبيها زهيرا والحطيئة فقال:زهير بن أبي سلمى والحطيئة وأشباههما عبيد الشعر"[12]
وفي الأغاني:"أن الحطيئة أتى كعب بن زهير،وكان الحطيئة راوية زهير وآل زهير فقال له:قد علمت روايتي لكم أهل البيت وانقطاعي إليكم،وقد ذهب الفحول غيري وغيرك،فلو قلت شعرا تذكر فيه نفسك،وتضعني موضعا بعدك-وقال أبو عبيدة:تبدأ بنفسك فيه ثم تثني بي-فإن الناس لأشعاركم أروى وإليها أسرع،فقال كعب:

فمَنْ للقَوَافِي شانَها مَن يَحُوكُهَا ... إذا ما ثَوَى كَعْبٌ وفَوَّزَ جَرْوَل[13]
كَفَيْتُكَ لا تَلْقَى من الناس واحدا ... تَنَخَّلَ منْهَا مثْلَ ما نتَنَخَّلُ [14]
نَقُولُ فلا نَعْيَا بشيءٍ نَقُولُهُ ... ومنْ قائِلِها مَنْ يُسِيءُ ويَعْمَلُ
نُثَقِفها حَتَّى تَلِينَ مُتُونُهَا ... فيقْصُر عنها كلُّ ما يُتَمَثَّلُ"[15]

وفي أبيات كعب هذا ما يدل على اعتنائهم بالشعر واعتدادهم به،فلا يزالون ينقحونه،ويقومون أسلوبه حتى يظهر في صورة أبهى وهيئة أحلى.

2-البلاغة العربية في صدر الإسلام

إن العرب قد عرفوا بالبلاغة وخصوا بالفصاحة، وكانت هذه المزية مجال الافتخار وموطن الشرف والاعتزاز، غير أن إمكانية وجود رؤية واضحة حول طبيعة ذلك السر الجمالي الذي حذقوه ،لم يكن ليعلم بحكم وجود غريزة لغوية، وحس مرهف يمكن تحديد الحسن من الرديء ،أضف إلى هذا غياب النموذج الذي منه وعلى أساسه يمكن تصنيف كلامهم ،وإلباسه لباس الحسن والقبح.

إن أهم حدث في تاريخ العرب هو نزول القرآن،وأهم شيء فيه أن تحداهم فيما برعوا فيه،وجعل عجزهم على ذلك دلالة على صدق نبوة النبي صلى الله عليه وسلم
فتحداهم أن يأتوا بمثله" فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ "[16]
وتحداهم أن يأتوا بعشر سور مثله: "أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ "[17]
وتحداهم أن يأتوا حتى بسورة من مثله :"أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ" [18]
إذا فقد"تحداهم القرآن ،والكلام كلامهم،وهو سيد عملهم،قد فاق بيانهم وجاشت به صدورهم،وغلبتهم قوتهم عليه عند أنفسهم،حتى قالوا في الحياة والعقارب،والذئاب ،والكلاب،والخنافس والجعلان والحمير والحمام وكل ما دب ودرج ولاح لعين،وخطر على قلب،ولهم بعد أصناف النظم،وضروب التأليف كالقصيد والرجز والمزدوج والمجانس والأسجاع والمنثور،،وبعد فقد هجوه من كل جانب،وهاجى أصحابه شعراءهم ونازعوا خطباءهم وحاجوه في المواقف،وخاصموه في المواسم وبادروه العداوة،وناصبوه الحرب،فقتل منهم ،وقتلوا منه...وهم يبذلون مهجهم وأموالهم،ويخرجون من ديارهم في

---

[12] شوقي ضيف البلاغة تطور وتاريخ ص12
[13] شانَها : جاء بها شائنةً أي مَعيبَةً .توى:مات.فوز:هلك
[14] تنخل الشيء: صفَّاه واختار أجودَه وأفضله
[15] الأصفهاني:أبو الفرج،لأغاني،ج2،ص107
[16] الطور 34
[17] هود13
[18] يونس 38

إطفاء أمره،وفي توهين ما جاء به، ولا يقولون بل لا يقول واحد من جماعتهم:لم تقتلون أنفسكم وتستهلكون أموالكم،وتخرجون من دياركم،والحيلة في أمره يسيرة،والمآخذ في أمره قريبة،ليؤلف واحد من شعرائكم وخطبائكم كلاما في نظم كلامه،كأقصر سورة يخذلكم بها،وكأصغر آية دعاكم إلى معارضته"[19]
لقد عجز العرب عن تقليد القرآن،وراحوا يعللون عجزهم ذلك بعديد المبررات التي لا تدل إلى على مدى العداوة التي حملوها له،يروى أنه"اجتمع إلى الوليد بن المغيرة نفر من قريش،وكان ذا سن فيهم،وقد حضروا الموسم،فقال لهم:يا معشر قريش إنه قد حضر هذا الموسم،وإن وفود العرب ستقدم عليكم فيه،وقد سمعوا بأمر صاحبكم هذا،فأجمعوا فيه رأيا واحدا...قالوا:نقول:كاهن،قال:لا والله ما هو بكاهن،لقد رأينا الكهان فما هو بزمزمة الكاهن ولا سجعه.قالوا:فنقول مجنون،قال ماهو بمجنون،لقد رأينا الجنون وعرفناه،فما هو بخنقه،ولا تخالجه ولا وسوسته.قالوا :فنقول شاعر،قال ما هو بشاعر،لقد عرفنا الشعر كله رجزه وهزجه،وقريضه ومقبوضه ومبسوطه فما هو بالشعر.قالوا:فنقول ساحر،قال ما هو بساحر،لقد رأينا السحار وسحرهم،فما هو بنفثهم ولا عقدهم.قالوا :فما نقول يا أبا عبد شمس؟قال:والله إن لقوله لحلاوة،وإن عليه لطلاوة،وإن أصله لعذق،وإن فرعه لجناة،وما أنتم بقائلين من هذا شيئا إلا عرف أنه باطل،وإن أقرب القول فيه...لأن تقولوا ساحر،جاء بقوله،هو سحر يفرق بين المرء وأبيه،وبين المرء وأخيه،وبين المرء وزوجته،وبين المرء وعشيرته،فتفرقوا عنه بذلك"[20] كما كان النبي صلى الله عليه وسلم شديد الاهتمام بالشعر والعناية بالشعراء
ومما ترويه لنا الأخبار عنه صلى الله عليه وسلم نورد الأمرين التاليين:
أولا: قوله لحسان بن ثابت رضي الله عنه " قل وروح القدس يؤيدك " .
وثانيا:عند سماعه قول النابغة الجعدي .
بلغنا السماء مجدنا وجدودنا وإنا لنبغي فوق ذلك مظهراً
فقال له:إلى أين المرتقى يا أبا ليلى : فقال إلى الجنة فقال له النبي صلى الله عليه وسلم " لا فض فوك " .
كما عني الخلفاء الراشدون بكلامهم ومن ذلك ما يروى عن أبي بكر الصديق رضي الله عنه أنه عرض لرجل معه ثوب فقال له : أتبيع الثوب ؟ فأجاب : لا عافاك الله فقال له أبو بكر : علمتم لو كنتم تعلمون قل لا وعافاك الله "
وأما عمر بن الخطاب فقد كانت له هو الآخر بعض الملاحظات البلاغية إذ هو القائل: " الشعر علم قوم لم يكن له علم أعلم منه " وقوله في زهير " كان لا يعاظل في الكلام "
أما علي رضي الله عنه فقد ذاع صيته واشتهر بالفصاحة والبيان , وفصاحته معروفة لا تخفى على أحد ،"وقد روي أن أعرابياً وقف على علي رضي الله عنه فقال : إن لي إليك حاجة رفعتها إلى الله قبل أن أرفعها إليك فإن قضيتها حمدت الله تعالى وشكرتك وإن لم تقضها حمدت الله تعالى وعذرتك ، فقال له علي : خطّ حاجتك في الأرض فإني أرى الضر عليك ، فكتب الأعرابي على الأرض إني فقير ، فقال علي : يا قنبر ادفع إليه حلتي الفلانية ، فلما أخذها مثل بين يديه فقال :

---

[19] رسائل الجاحظ،على هامش الكامل للمبردنقلا عن:شوقي ضيف،البلاغة تطور وتاريخ ص20
[20] ابن اسحاق، السيرة النبوية،تح:أحمد فريد المريدي،دار لكتب العلمية،ط 1، 2004، ج2،ص 289

كسوتني حلةً تبلى محاسنها فسوف أكسوك من حلل الثنا حللاً
إن الثناء ليحيى ذكر صاحبه كالغيث يحيى نداه السهل والجبلا
لا تزهد الدهر في عرف بدأت به فكلّ عبد سيجزى بالذي فعلا

فقال عليّ يا قنبر أعطه خمسين ديناراً ، أما الحلة فلمسألتك وأما الدنانير فلأدبك ، سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : أنزلوا الناس منازلهم . "[21]

وبهذا يتبين لنا أن للخلفاء معرفة بالشعر ونقده ، كما أن ملاحظاتهم فطرية تعتمد على الذوق دون تعليل لها وأكثر من هذا فقد "اعترض كتاب الله بالطعن ملحدون،ولغوا فيه وهجروا،واتبعوا" مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ "[22]بأفهام كليلة،وأبصار عليلة،ونظر مدخول،فحرفوا الكلم عن مواضعه،وعدلوه عن سبله،ثم قضوا عليه بالتناقض والاستحالة،واللحن وفساد النظم والاختلاف،وأدلوا في ذلك بعلل ربما أمالت الضعيف الغُمر ،والحَدث الغِر،واعترضت بالشبه في القلوب،وقدحت بالشكوك في الصدور"[23]

إن وقوف العرب عاجزين عن محاكاة النموذج الأعلى"القرآن" قد أثر عليهم من ناحيتين:

- عدم إمكانية تقليده ولو بآية جعلهم يشعرون بالنقص ،بل وأكثر من ذلك فقد خارت قواهم وجفت قرائحهم ليتهموا النبي في الأخير بأنه ساحر ، ويظهر ذلك في قوله تعالى في سورة المدثر" إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ، فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ، ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ،ثُمَّ نَظَرَ ، ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ، ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ ، فَقَالَ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ ، إِنْ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ ."[24]والملاحظ للتهمة هذه يجدها خارجة عن الخطاب القرآني في حد ذاته، بمعنى وجود قوة خارجة عن ذات القرآن،حتى يعطوا لأنفسهم الذرائع ويقيموا على الآخرين الحجج.
- إيمان العرب فيما بعد بالقرآن قد جعلهم يثيرون العديد من الأسئلة حول حقيقة السر الذي منعهم من محاكاة القرآن في مرحلة ما قبل الإيمان، ولهذا وجد أعمق سؤال أدرك على أعظم كتاب أنزل وهو"إذا كان هذا القرآن معجزا ،فأين مكمن هذا الإعجاز؟.

إن دوران رحى البحث حول إعجاز القرآن الكريم قد أفرز العديد من الدراسات التي رام كل جانب منها أن يؤدي دوره ليثبت منه إعجازه، وبتعبير آخر ،فإن القرآن الكريم كان بمثابة المركز وكل الدراسات حامت حوله بصفتها أطرافا خاضعة له وتابعة إليه.

من هذا المنطلق ندرك أن الدرس البلاغي لم يكن غاية في حد ذاته، وإنما كان وسيلة تهدف إلى غاية أسمى منه وهو إثبات إعجاز القرآن الكريم، لكننا في المقابل نقر بأن رحلة الدرس البلاغي قد عرفت طريقها الصحيح باحتكاكها بالنموذج الأعلى"القرآن"

انطلاقا مما سبق ذكره ،يتبين لنا أن الدرس البلاغي لم يكن مقصودا في حد ذاته،وإنما كان لغاية عظمى وهي محاولته البحث عن مواطن الإعجاز من خلال أساليب العرب ،وطرائق تعبيرهم في فنون القول المختلفة، وما يؤكد هذا الطرح أن أول كتاب يتصل بالبلاغة قد عنون بـ"مجاز القرآن"لأبي عبيدة ،وكان سبب تأليفه هو البحث في هذا المضمار.

---

[21] القيرواني:أبو الحسن بن رشيق،العمدة في محاسن الشعر ، تح :محمد محيي الدين عبد الحميد،دار الجيل،ط5(1401ه، 1981م)ج1،ص29.

[22] آل عمران 7

[23] ابن قتيبة ،تأويل مشكل القرآن ، ،تح السيد احمد صقر ،د م ن، ص22

[24] المدثر18-25

ويؤيد هذا الطرح أيضا قول أبي هلال العسكري:"إن أحق العلوم بالتعلم وأولاها بالتحفظ،بعد المعرفة بالله جل ثناؤه،علم البلاغة ومعرفة الفصاحة الذي به يعرف إعجاز كتاب الله تعالى،الناطق بالحق ، الهادي إلى سبيل الرشاد، المدلول به على صدق الرسالة، وصحة النبوة؛ التي رفعت أعلام الحق، وأقامت منار الدين، وأزالت شبه الكفار ببراهينها، وهتكت حجب الشك بيقينها" [25]كما أن إمام البلاغة عبد القاهر الجرجاني قد عنون كتابه الذي خصه لعلم المعاني بـ"دلائل الإعجاز"وبسط فيه أهم نظرية في الدرس البلاغي،ثم أعاد تطبيقها في كتابه"أسرار البلاغة"، أما صاحب الكشاف فقد أولى عناية بالغة لعلمي المعاني والبيان ،ولهذا افتتح كتابه بالحديث عنهما واعتبرهما "علمين مختصين بالقرآن"[26]كما اعتمدهما كأساس لتفسير القرآن الكريم ،ولا غرو فهو يعتبر "البيان" مرادفا "للكشف" [27].

ومن هنا،نشأت العديد من الدراسات التي حامت حول القرآن وكانت ترمي أحد أمرين:

الأول:الدفاع عن القرآن الكريم

ثانيا معرفه كنه هذا الإعجاز

وكانت جل هذه الدراسات عبارة عن موسوعات جمعت العديد من العلوم حولها ،كون هذه المرحلة لم تعرف بعد ما يعرف بالتخصص العلمي

إننا سنحاول التطرق إلى أهم تلك الدراسات معتمدين في ذلك على التصنيفات التي أقرت فيما بعد،:

3-البلاغة في عصر بني أمية

كثرت الملاحظات البلاغية في عصر بني أمية كثرة عظيمة،وكان ذلك راجعا للعديد من الأسباب نذكر منها:

-تحضر العرب واستقرارهم في المدن والأمصار .

- رقي الحياة العقلية بسبب ازدهار العلوم وتطورها .

-ظهور الطوائف السياسية والفرق الكلامية، وكثرة جدالهم في الأمور السياسية والعقدية؛ فكان هناك الخوارج والشيعة والزبيريون والأمويون ، والمرجئة والقدرية والمعتزلة .

إن هذه الأمور وغيرها قد كان لها الأثر البالغ في إعادة خلق مناخ بلاغي ساهم في تطوير الملاحظات البلاغية سواء أكانت متعلقة بالنثر كالخطابة مثلا أم بالشعر والشعراء .

ولهذا انتشرت الخطابة وتعددت ألوانها من سياسية، وحفلية، ووعظية،

ففي السياسة يشتهر زياد، والحجاج.

ففي زياد يقول الشعبي: "ما سمعت متكلما على منبر قط تكلم فأحسن إلا أحببت أن يسكت خوفا من أن يسيء إلا زيادا فإنه كلما أكثر كان أجود كلاما"[28]

وفي الحجاج يقول مالك بن دينار"ربما سمعت الحجاج يخطب،يذكر ما صنع به أهل العراق وما صنع بهم،فيقع في نفسي أنهم يظلمونه وأنه صادق،لبيانه وحسن تخلصه بالحجج"[29]

---

[25] أبو هلال العسكري ،الصناعتين، ،تحقيق مفيد قمحة،دار الكتب العلمية، بيروت لبنان ط2(1409هـ-1989مـ)ص9

[26]ينظر:الزمخشري :جار الله أبو القاسم محمود بن عمر،،الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل،تح:عادل أحمد عبد الموجود وآخرون،مكتبة العبيكان،السعودية،ط1(1418،1998) ج1ص96

[27]نفسه ج1ص95

[28] الجاحظ،البيان والتبيين ج 2 ص65،66

[29]نفسه ج1 ،ص 394

ومن خطباء المحافل نجد كلا من سحبان بن وائل، ، سحار العبدي، الذي راع معاوية بخطابته، فسأله ما تعدون البلاغة فيكم؟ قال: الإيجاز؛ ولهذا اشتهر أن البلاغة الإيجاز، وقال له معاوية : وما الإيجاز؟ قال سحار: "أن تجيب فلا تبطئ، وتقول فلا تخطئ".

أما خطباء الوعظ، ففي مقدمتهم الحسن البصري، وواصل بن عطاء.

كما كان لمجالس الخلفاء والولاة و الأندية الأدبية كسوق المِربد في البصرة وسوق الكُناسة في الكوفة الأثر البالغ في ازدهار الملاحظات البلاغية، إذ كانت تعد بمثابة ملتقيات علمية يجتمع فيها صناع الكلام وأرباب الأذواق وكل منهم يطرح بضاعته.

واستطاع جرير، والفرزدق، أن يتطوروا في سوق المربد بفن الهجاء القديم، فإذا بهذا السوق يصبح مناظرة واسعة في حقائق عشيرتي الشاعرين، وحقائق قيس وتميم، ويحاكيهما كثير من الشعراء، ويتجمع لهم الناس يصفقون كلما مر بهم بيت نافذ الطعنة، ويهتفون، ويصيحون.[30]

ويمكننا أن نورد الأمثلة التالية:

- يقال إن ذا الرمة كان ينشد بسوق الكناسة في الكوفة إحدى قصائده فلما وصل إلى قوله :

إذا غير النأي المحبين لم يكد رسيس الهوى من حب مية يبرح

صاح به ابن شبرمة : أراه قد برح وكأنه لم يعجبه التعبير بقوله لم يكد ، فكف ذو الرمة ناقته بزمامها وجعل يتأخر بها ويفكر ثم عاد فأنشد .

النأي إذا غيّر المحبين لم أجد ....

-ومن ذلك أيضاً أنه "اجتمع نُصيب و الكُميت ، فاستنشده نصيب من شعره،فأنشده الكميت :هل أنت عن طرب الأيفاع منقلب

حتى بلغ قوله

أَمْ هَلْ ظَعَائِنُ بِالْعَلْيَاءِ نَافِعَةٌ وَإِنْ تَكَامَلَ فِيها الأُنْسُ والشَّنَبُ31

فعقَدَ "نَصِيبٌ" في يده واحدة.

فقال الكُمَيْتُ: ماهذا؟

قال أحصي خطأَكَ، تباعَدْتَ في قولك، "الأُنْسُ و الشنب" (أي: ما الرابط بين الأنس والشَّنَب) ألاَّ قُلْتَ كما قال ذو الرّمّة:

لَمْيَاءُ في شَفَتَيْهَا حُوَّةٌ لَعَسٌ وَفِي اللِّثَاتِ وَفِي أَنْيَابِهَا شَنَبُ32

فانْكسَرَ الكُمَيْت وأمسك"33.

ومن ذلك ما روي عن الحجاج حين أنشدته ليلى الأخيلية قولها :

إذا ورد الحجاج أرضاً مريضةً تتبع أقصى دائها فشفاها

شفاها من الداء العضال الذي بها غلام إذا هزّ القناة ثناها

فقال لها الحجاج لا تقولي غلام ، ولكن قولي همام .

لأن لفظ الغلام يشعر بالصبوة والنزق والجهل .

---

[30] الأصفهاني:أبو الفرج،لأغاني، ج10 ص258

[31] الشَّنَبُ: جمال الثَّغْر، وصفاءُ الأسنان ورقّتها.

32 لَمْيَاءُ: أي: ذاتُ شفاه حُمْرتُها ضاربة إلى سواد، وهذا نوع من الجمال يستحسنه العرب.

حُوَّة: الحوّةُ لونٌ مُسْتَحْسنٌ في الشفاء، وهو حمرةٌ إلى سواد.

لَعَس: اللَّعَسُ سواد في باطن الشفة.

[33] مجالس العلماء،الزجاجي:أبو القاسم عبد الرحمان بن إسحاق تح:عبد السلام محمد هارون،مكتبة الخانجي القاهرة،ط1999،1420،3ص139.140

- مدح جرير الخليفة عبد الملك بن مروان ، فقال :
هذا ابن عمي في دمشق خليفة لو شئت ســاقكم إلي قطينا
فلما سمعه عبد الملك قال : ما زاد على أن جعلني شرطيا - والله لو قال (لو شاء) لسقتهم إليه قطينا .
وقد أخطا جرير في قوله (شئت) بإسناد الفعل لنفسه ، وجعل الخليفة شرطيا عنده - وهذا لا يليق بمقام الخليفة ، ولو استبدل كلمة (شاء) أي الخليفة مكان (شئت) لحظي بما يريد.
ومن ذلك ما روي عن عبد الملك بن مروان حين مدحه عبد الله بن قيس الرقيات بقصيدة منها قوله.
يأتلق منها التاج فوق مفرقة على جبين كأنه الذهب
فغضب عبد الملك وقال له : قد قلت في مصعب بن الزبير :
إنما مصعب شهابه من الله تجلت عن وجهه الظلماء
فأعطيته المدح بكشف الغمم وجلاء الظلم وأعطيتني من المدح مالا فخر فيه وهو اعتدال التاج فوق جبيني الذي هو كالذهب في النضارة.
كما ازدهرت الخطابة بجميع ألوانها من سياسية وحفلية ووعظية،وكان من الخطباء زياد والحجاج

4- البلاغة العربية في العصر العباسي:

وتميز هذا العصر بتطور الملاحظات البلاغية وكان مرد ذلك إلى:
-تطور فني الشعر والنثر بسبب تطور الحياة العقلية والحضارية والذي فرضته حركة الترجمة،فقد ترجم ابن المقفع عن الفارسية كتبا كثيرة منها كليلة ودمنة وأجزاء من منطق أرسطو طاليس،وكان من آثار ذلك ظهور طائفتين من الشعراء؛إحداهما تميل إلى ضرورة أن يقترب الشعر من لغة الشعب اليومية فيمس جميع قلوب الناس وكان منهم أبو العتاهية،وأخرى تميل إلى قوة الرصف وفخامتة وجزالته ومنهم مسلم الذي كان يعنى كثيرا بالصور البيانية والمحسنات البديعية
-ظهور كتاب الدواوين،فقد كانوا يختارون من الفصحاء البلغاء وقد نوه الجاحظ بهم حيث يقول:أما أنا فلم أر قط أمثل طريقة في البلاغة من الكتاب،فإنهم قد التمسوا من الألفاظ ما لم يكن متوعرا وحشيا ولاساقطا سوقيا"[34]
ومن الكتاب نجد جعفر بن يحي البرمكي الذي يقال عنه:كان جعفر بليغا كاتبا،وكان إذا وقع نسخت توقيعاته وتدورست بلاغاته"[35]
-نشوء طائفتين من المعلمين :طائفة المتكلمين الذين كانوا يعنون بتعليم الشباب فن الخطابة والمناظرة من أجل الدفاع عن القرآن الكريم أو تأييد آرائهم،وطائفة اللغويين والنحويين الذين كانوا يحترفون تعليم اللغة ومقاييسها في الاشتقاق والإعراب معتمدين في ذلك على شرح الأبيات الشعرية وتبيين خصائصها الأسلوبية ومعرجين في الوقت ذاته على ما فيها من الصور البيانية والمحسنات البديعية.
ويمكننا أن نقسم هذا العصر إلى أربعة أقسام
-مرحلة نشوء الملاحظات البلاغية

---

[34] الجاحظ،البيان والتبيين ج1،ص137
[35] الجهشياري ،الوزراء والكتاب،تح:مصطفى السقا وآخرون،مطبعة مصطفى الباني الحلبي،ط1، ص204

-مرحة نمو الملاحظات البلاغية
-مرحلة ازدهار الدراسات البلاغية
-مرحلة الجمود

أ-مرحة نشوء الملاحظات البلاغية:وفي هذه المرحلة تم وضع البذور الأولى للدرس البلاغي من خلال وضع بعض التأليفات التي يمكننا أن نقسمها إلى الطوائف التالية:

-طائفة اهتمت بدراسة القرآن الكريم :وهي التي رامت دراسة جوانب في القرآن الكريم فكان أن طرحت العديد من القضايا البلاغية ويمكننا أن نطرح في هذا المقام ما ألفه أبو عبيدة والفراء وابن قتيبة

-مجاز القرآن لأبي عبيدة(209ه)

تروي لنا كتب التراجم عن سبب تأليف أبي عبيدة لهذا الكتاب أنه كان يوما في مجلس الفضل بن الربيع فسأله إبراهيم بن إسماعيل أحد كتاب الفضل عن قوله تعالى في شجرة الزقوم في سورة الصافات" طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ 36" وكيف يشبه الله سبحانه وتعالى طلع هذه الشجرة برؤوس الشياطين على سبيل التخويف والوعيد، والعادة في التخويف والوعيد أن يكون بما هو مألوف للناس ومعروف لديهم،والعرب لم يروا الشيطان حتى يخيفهم بتشبيه طلع شجرة الزقوم برؤوسها، فأجابه أبو عبيدة بأن الله سبحانه وتعالى إنما خاطب العرب على قدر كلامهم،فامرؤ القيس يقول في توعد خصمه:

أيقتلني والمشرقي مضاجعي ومسننة زرق كأنياب أغوال

والعرب لم يروا الغول قط، ولكن لما كان أمر الغول يهولهم أوعدوا به، وقد استحسن الفضل هذا الجواب واستحسنه السائل، ومنذ ذلك الحين عزم أبو عبيدة على وضع كتاب عن مثل هذه الأساليب في القرآن الكريم، ولما عاد إلى البصرة وضع كتاب "مجاز القرآن"37

وترجع أهمية الكتاب البلاغية إلى عدة أمور منها:
أولها:أنه أول دراسة تصلنا،تعكس مراحل تطور الدراسات البيانية لأسلوب القرآن.
وثانيها:أنه ول دراسة تتصل بلغة القرآن.
وثالثها:أن هذا الكتاب يعد المرجع الأساسي لكثير من الدراسات اللغوية والأدبية التي تلته.
ورابعها:أن هذا الكتاب يعد شركة بين التفسير وعلوم اللغة والبلاغة38

-المباحث البلاغية التي تطرق إليها

- المجاز:وهو لم يرد عنده بالمفهوم الذي استقر عليه الدرس البلاغي فيما بعد،بل كان استعماله وفق المعنى اللغوي البحت،فهو يعني عنده العدول عن استعمال ،اللفظ عن المعنى البسيط إلى معنى آخر يمت له بصلة،ولهذا الأمر صور عديدة عنده:

قد يتحول مدلول الفاعل إلى المفعول،أو العكس،مثل قوله تعالى" وَآَتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ "39 ،والعصبة هي التي تنوء بالمفاتح التي تنقلها

ومن مجاز ما يقع المفعول إلى الفاعل قوله تعالى" فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ 40 وإنما يرضى بها الذي يعيش فيها

---

[36] الصافات65

[37]ينظر: ياقوت الحموي،معجم الأدباء:إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب،تح:إحسان عباس،دار الغرب الإسلامي،لبنان، ط1، 1993، ج6ص2707

[38] جمال العمري:المباحث البلاغية في ضوء قضية الإعجاز القرآني ، مكتبة الخانجي القاهرة،ط1، 1990 ص 41،40

[39] القصص 76

ومنه أيضا تحول مدلول الأدوات والحروف ومن صوره:
-الانقلاب في المدلول إلى الضد ومنه قوله تعالى "ومن ورائهم جهنم" مجازه قدامه وأمامه
-التغير في مدلول الاستفهام في قوله تعالى :" قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ "[41] جاءت على لفظ الاستفهام،والملائكة لم تستفهم ربها،وقد قال تبارك وتعالى إني جاعل ولكن معناها الإيجاب أي أنك ستفعل
-وقد يتحول المعنى عنده تحولا بلاغيا وهنا تحمل كلمة مجاز مجموعة من المعاني اصطلح عليها البلاغيون فيما بعد وأعطوها تسميات خاصة
ومن ذلك قوله تعالى" وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا وَالْعِيرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا 42 "يعتبره:من مجاز ما حذف وفيه مضمر فهذا محذوف فيه ضمير مجازه وسل أهل القرية ومن في العير "وقد ظل هذا المثال من أكثر الأمثلة دورانا في دراسات البلاغيين المتأخرين،حتى ليكاد يكون هو المثال التقليدي للإيجاز بالحذف"[43]
ومن الأساليب البلاغية التي أشار إليها :
ففي علم المعاني: أشار إلى التقديم والتأخير يقول ومن مجاز المقدم والمؤخر قال تعالى"فإذا انزلنا عليها الماء اتهتزن وربت "أراد ربت واهتزت
وأما في علم البيان فقد استعمل مصطلح التشبيه،والكناية والمثل والتمثيل وإن كان معنى التشبيه أقرب إلى ما استقر عليه الدرس البلاغي فيما بعد
ففي قوله تعالى"نساؤكم حرث لكم"يقول عنه إنه كناية وتشبيه،وهو من نوع التشبيه البليغ كما عرفه المحدثون أين يسقط المشبه به والأداة
-معاني القرآن للفراء(207 ه)
لقد عاصر الفراء أبا عبيدة ونهج نهجه فألف كتابا في الأسلوب القرآني،غير أن نقطة الاختلاف بينهما تكمن في كون كتاب معاني القرآن يبحث في التراكيب والإعراب وكتاب مجاز القرآن يبحث في الغريب والمجاز
لقد اتبع الفراء نهج سلفه في تأليفه ،فهو يبدأ بتفسير الآية بالآية،ثم تفسيرها بالحديث النبوي الشريف مدللا على ذلك بكلام العرب من أشعارهم وأمثالهم
والملاحظ "أن الطابع النحوي هو الغالب على تصنيف الكتاب،وهذا أمر طبيعي،لأن الرجل كان إماما من أئمة النحو الكوفيين في عصره،لذلك نراه يجنح دائما إلى إبراز الجانب النحوي،والإعرابي خاصة في الآية"[44]
المفاهيم البلاغية في كتاب معاني القرآن
-الكناية:وهي في مفهومه الإخفاء،فيقول في تفسير قوله تعالى::" إِذَا مَا جَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ "45 ،الجلود هنا-والله أعلم-الذكر-وهو مما كنى به الله عز وجل عنه،كما قال:" أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ " 46 ،والغائط الصحراء،والمراد من ذلك :أو قضى أحدكم حاجة.

[40] الحاقة21
[41] البقرة 30
[42] الكهف 82
[43] أحمد جمال العمري:المباحث البلاغية في ضوء قضية الإعجاز القرآني ص45
[44] أحمد جمال العمري:المباحث البلاغية في ضوء قضية الإعجاز القرآني ص51
[45] عافر20
[46] النساء43

وقد يكون الاختفاء في اللفظ كقوله تعالى"و وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّاهَا 47جلا الظلمة،فجاز الكناية عن الظلمة،ولم تذكر،لأن معناها معروف

-التشبيه وهو عنده مرادف للمثل والمثيل يقول معلقا على قوله تعالى" فَإِذَا انْشَقَّتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ"[48] أراد بالوردة الغرس،والوردة تكون في الربيع إلى الصفرة أميل،فإذا اشتد البرد كانت وردية حمراء،فإذا كان بعد ذلك كانت وردة إلى الغبرة أميل،فشبه تلون السماء بتلون الوردة،وشبهت الوردة في اختلاف ألوانها بالدهن،واختلاف ألوانه،ويقال إن الدهان الدايم الأحمر

ويقول معلقا على قوله تعالى"مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا [49] "والسفر واحد الأسفار،وهي الكتب العظام،شبه اليهود ومن لم يسلم،إذ لم ينتفعوا بالتوراة والإنجيل،بالحمار الذي يحمل كتب العلم ولا يدري ما عليه

وفي هذا المثال نجده قد فصل أركان التشبيه،وعمله هذا يعد خطوة نحو الأمام في تفصيل هذا اللون البلاغي

-المجاز: لم يتجاوز مفهوم الفراء للمجاز ذلك المفهوم الذي قدمه سلفه أبو عبيدة،فاقتصر عنده على المفهوم اللغوي

فيقول معلقا على قوله تعالى" فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى [50]"فهل العسرى تيسير؟ فيقال في هذا إجازته بمنزلة قوله تبارك وتعالى" وَبَشِّرِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ [51]والبشارة في الأصل على المفرح والسار،فإذا جمعت في كلامين هذا خير ،وهذا شر،جاز التيسير فيهما جميعا

كما تطرق الفراء لبعض المباحث البلاغية ومنها:

-الاستفهام وخروجه إلى معان أخرى كالتوبيخ مثلا،كما في قوله تعالى:" وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ قَالُوا بَلَى وَرَبِّنَا قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ 52يقول:والعرب تستفهم بالتوبيخ ولا تستفهم

-كما يذكر التقديم والتأخير فيعلق على قوله تعالى" فَجَعَلَهُ غُثَاءً أَحْوَى 53"إذا صار البيت يبسا،فهو غثاء،وأحوى الذي قد اسود من العنق،ويكون أيضا أخرج المرعى أحوى،فجعله غثاء،فيكون مؤخرا معناه التقدم

"والجديد في كتب الفراء،والجدير بالاهتمام،التفاته إلى نظم القرآن ووزنه،إذ لاحظ هذا النسق الصوتي،وحاول أن يتتبعه،ونراه في ملاحظاته التي أوردها مدركا تماما لوزن القرآن،...وهو إذ يحاول أن يقارن بين وزن الشعر ووزن القرآن،لا يذهب بعيدا،بل يريد أن يقول:إن للقرآن ما للشعر والكلام الموزون من صفات،ومن هذه الاعتبارات المتصلة بالنظم تجاوب الكلمات مع وزن الآية،ومراعاة رءوس الآيات للنسق"54

ابن قتيبة(276ه) في كتابة تأويل مشكل القرآن

---

[47] الشمس3

[48] الرحمان37

[49] الجمعة 5

[50] الليل10

[51] التوبة3

[52] الأحقاف34

[53] الأعلى 5

[54] أحمد جمال العمري:المباحث البلاغية في ضوء قضية الإعجاز القرآني ص56

ألف كتابه تأويل مشكل القرآن للرد على الملاحدة وأشباههم الذين يطعنون في القرآن الكريم وهو في عمله متأثر بالجاحظ وأبي عبيدة
فتأثره بالجاحظ يظهر من خلال ظاهر عمله الذي هو عبارة عن رد عن الملحدين
أما تأثره بأبي عبيدة فيظهر من خلال مضامين كتابه
ولهذا فقد تطرق للعديد من القضايا التي طرقها من سبقه فيقول مثلا:"وللعرب المجازات في الكلام ومعناها طرق القول ومآخذه،ففيها الاستعارة والتمثيل والقلب والتقديم والتأخير والحذف والتكرار والإخفاء والإظهار والتعريض والإفصاح والكناية والإيضاح ومخاطبة الواحد مخاطبة الجميع،والجميع خطاب الواحد،والواحد والجميع خطاب الاثنين،والقصد بلفظ الخصوص لمعنى العموم وبلفظ العموم لمعنى الخصوص،مع أشياء كثيرة ستراها في أبواب المجاز"55
فمثلا في كلامه عن التقديم والتأخير يعرض لقوله تعالى" وَامْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ 56 "أي بشرناها بإسحاق فضحكت[57].
ومما ذكره من الحذف والاختصار قوله تعالى" وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا "58 أي سل أهلها[59]
كما تطرق في كتابه الشعر والشعراء إلى قضية اللفظ والمعنى مقسما الكلام في ذلك إلى :ما حسن لفظه ومعناه،وما حسن لفظه دون معناه،وما حسن معناه دون لفظه[60].
طائفة المتكلمين:وهم الذين كانوا يعنون بتعليم الشباب فن الخطابة والمناظرة لتأتييد آرائهم وإفحام خصومهم ونذكر منهم الجاحظ:في كتابه البيان والتبيين والحيوان
الجاحظ(255):في كتابيه البيان والتبيين والحيوان
يمكن كشف جهود الجاحظ انطلاقا من أمرين :
الأول مما نقله لنا من أقوال وملاحظات حول البلاغة سواء عند العرب أو غيرهم من الأمم
الثاني تلك الملاحظات التي أسهمت فيما بعد في تطور المباحث البلاغية
فنجد نقله لآثار بشر بن المعتمر عن صفات الألفاظ والمعاني وضرورة مطابقة الكلام للحال فيقول:و كما لا ينبغي أن يكون اللفظ عاميا وساقطا سوقيا، فكذلك لا ينبغي أن يكون غريبا وحشيا إلا أن يكون المتكلم بدويا أعرابيا...وكلام الناس في طبقات كما أن الناس أنفسهم في طبقات"، كما يقول في موضع آخر "ولكل صناعة ألفاظ قد حصلت لأهلها"61
وبتأكيده على المطابقة يعرض لقضايا بلاغية كالإيجاز والإطناب، والإيجاز عنده"ليس يعنى به قلة عدد الحروف واللفظ،....وإنما ينبغي للمتكلم أن يحذف بقدر ما لا يكون سببا لإغلاقه"62
ولهذا فالكلام البليغ عنده ماكان قليله يغني عن كثيره ومعناه في ظاهر لفظه ولهذا فقد أنكر التكلف في القول.

---

[55] ابن قتيبة ،تأويل مشكل القرآن ص 21،20
[56] هود71
[57] ابن قتيبة ،تأويل مشكل القرآن،ص206
[58] الكهف 82
[59] ابن قتيبة ،تأويل مشكل القرآن ص210
[60] ابن قتيبة،الشعر والشعراء،تح:أحمد محمد شاكر،دار المعارف،القاهرة،ص64
[61] الجاحظ، الحيوان،ج 3ص 368
[62] نفسه ج1،ص 91

كما يشيد بدقة التأليف وجودة التركيب مع جمال اللفظ،بل أدى به شغفه بالألفاظ إلى قوله"المعاني مطروحة في الطريق يعرفها العجمي والعربي والبدوي والقروي ،وإنما الشأن في إقامة الوزن وتخير اللفظ وسهولة المخرج وكثرة الماء وفي صحة الطبع وجودة السبك،وإنما الشعر صياغة وضرب من التصوير"63
وكلامه هذا ليس معناه عدم احتفائه بالمعنى،بل العكس من ذلك فهو يلح على ضرورة مطابقة اللفظ للمعنى أو ما يسمى بالنظم،وألف كتاها في ذلك سماه نظم القرآن غير أن الزمن أضاعه
ومن المباحث البلاغية التي تطرق إليها :
-الاستعارة في قول الشاعر
يادار قد غيرها بلاها كأنما بقلم محاها
أفردها عمران من بناها وكَر ممساها على مغناها
وطفقت سحابة تغشاها تبكي على عِراصها عيناها
"طفقت يعني ظلت.تبكي على عراصها عيناها،عيناها هاهنا للسحاب،وجعل المطر بكاء من السحاب على طريق الاستعارة وتسمية الشيء باسم غيره إذا قام مقامه"64 والاستعارة عنده من باب المجاز
-وأما ما تعلق بالبديع فيرى الجاحظ أنه"مقصور على العرب ومن أجله فاقت لغتهم كل لغة، وأربت على كل لسان،والراعي كثير البديع في شعره،وبشار حسن البديع،والعتابي يهب في شعره في البديع مذهب بشار"65
-كما أشار إلى الاعتراض والتعريض والكناية،ومن قوله:"إذا قالوا فلان مقتصد فتلك كناية عن البخل،وإذا قيل للعامل مستقص فتلك كناية عن الجور"66
وقد توقف في كتابه الحيوان في خضم كشفه عن الدلالات الدقيقة لآيات القرآن على التشبيه بنفس معناه الاصطلاحي
طائفة اللغويين: وهم الذين كانوا يحترفون تعليم اللغة ومقاييسها في الاشتقاق والإعراب
سيبويه(180هـ) في كتابه الكتاب
وضع سيبويه بابا فصل فيه أقسام الكلام من حيث الحسن والقبح،بل ومن حيث الاستقامة وغيرها .ومعايير ذلك قواعد نحوية ينبغي على المتكلم الاعتماد عليها حتى لا يخرج من دائرة البيان إلى دائرة الهذيان، ومقدما في ذلك العديد من الأمثلة، وفي هذا يقول" هذا باب الاستقامة من الكلام والإحالة، فمنه مستقيم حسن،ومحال،ومستقيم كب،ومستقيم قبيح،وما هو محال كذب،فأما المستقيم الحسن فقولك:أتيتك أمس،وسآتيك غدا.وأما المحال فأن تنقض كلامك بآخره فتقول:أتيتك غدا،سآتيك أمس.وأما المستقيم الكذب فقولك:حملت الجبل،وشربت ماء البحر،ونحوه.وأما المستقيم القبيح فأن تضع اللفظ في غير موضعه،نحوقولك:قد زيدا رأيت،وكي زيد ياتيك،وأشباه هذا،وأما المحال الكذب فأن تقول:سوف أشرب ماء البحر أمس."[67]

---

[63] نفسه ج3ص 131
[64] الجاحظ،البيان والتبيين ج1ص152،153
[65] نفسه ج4 ص 55،56
[66] انفسه ج1،ص 263
[67] سيبويه،،الكتاب ،تح:عبد السلام محمد هارون،مكتبة الخانجي،القاهرة ط3(1408ه، 1988م)ج1ص 2567،26

وهو بهذا يقر بأن اللفظ إذا وضع في غير موضعه أو أزيح عن مكانه كان ذلك أفسد للتأليف وأجلب للتأنيب

ومن أبواب البلاغة التي طرحها سيبويه أيضا ما جاء في قضية التقديم والتأخير حيث يقول" والتقديم هاهنا والتأخير فيما [يكون ظرفا أو يكون اسما،في العناية والاهتمام،مثله فيما ذكرت لك في باب الفاعل والمفعول وجميع ما كرت لك من التقديم والتأخير]والإلغاء والاستقرار عربي جيد كثير"[68]

ومن الأبواب أيضا باب النكرة والمعرفة موضحا الفروق الدقيقة بينهما،ومبينا مواضع كل منهما يقول:"واعلم أن النكرة أخف عليهم من المعرفة، وهي أشد تمكنا ؛لأن النكرة أول،ثم يدخل عليها ما تعرف به.فمن ثم أكثر الكلام ينصرف في النكرة."[69]

كما اهتم سيبويه بحروف العطف وأثرها في ،وكان جل اهتمامه منصبا على بناء نظام لغوي، يكون عموده الفقري مراعاة أحوال النحو، إذ يرى أن لكل استعمال معناه، وأن أي تغيير في الاستعمال يعني تغيرا في المعنى،وهو بهذا يتفق مع عبد القاهر الجرجاني إلى حد بعيد

المبرد(285) في كتابيه الكامل والمقتضب

يعرف البلاغة بقوله:"حق البلاغة إحاطة القول بالمعنى، واختيار الكلام وحسن النظم؛حتى تكون الكلمة مقاربة أختها،ومعاضدة شكلها ،وأن يقرب بها البعيد، ويحذف منها الفضول"[70]

ولعل من أهم ما أضافه المبرد هو ربطه النظم بالفروق اللغوية ويستشهد على ذلك بما ترويه الكتب من أن الكندي الفيلسوف قد ركب إلى أبي العباس المبرد وقال له:إني لأجد في كلام العرب حشوا،فقال له أبو العباس:في أي موضع وجدت ذلك؟ فقال: أجد العرب يقولون:عبد الله قائم، ثم يقولون:إن عبد الله قائم ثم يقولون:إن عبد الله لقائم،فالألفاظ متكررة والمعنى واحد،فقال أبو العباس:بل المعاني مختلفة لاختلاف الألفاظ، فقولهم عبد الله قائم إخبار عن قيامه،وقولهم:إن عبد الله قائم جواب عن سؤال سائل،وقولهم:إن عبد الله لقائم جواب عن إنكار منكر قيامه، فقد تكررت الألفاظ لتكرر المعاني،وقال فما أجاز المتفلسف جوابا، وإذا كان الكندي يذهب هذا عليه يركب فيه ركوب مستفهم أو معترض فما ظنك بالعامة ومن هو في عداد العامة ممن لا يخطر شبه هذا بباله"[71]

كما طرح المبرد العديد من الأمثلة التي تظهر من خلالها الفروق اللغوية ومن ذلك التقديم فيقول"ألا ترى أنك إذا قلت :ظننت زيدا أخاك، فإنما يقع الشك في الأخوة،فإذا قلت:ظننت أخاك زيدا أوقعت الشك في التسمية. وإنما يصلح التقديم والتأخير إذا كان الكلام موضحا عن المعنى ؛نحو:ضرب زيدا عمرو ؛لأنك تعلم بالإعراب الفاعل والمفعول ،فإن كان المفعول الثاني مما يصح موضعه إن قدمته فتقديمه حسن، نحو قولك: ظننت في الدار زيدا،وعلمت خلفك زيدا"[72]

68نفسه ج1ص 56

69سيبويه،،الكتاب ج1 ص 22

70المبرد:أبو العباس محمد بي يزيد، البلاغة ،تح :رمضان عبد التواب،مكتبة الثقافة الدينية،القاهرة ط2(1405ه، 1985م) ، ،ص81

71عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز ص205 ،206

72 المبرد،المقتضب،تحقيق محمد عبد الخالق عظيمة،القاهرة،(1994 ،1415) ج3 ص96،95

ويغوص المبرد في الفروق اللغوية فيتجاوز تلك المبنية على الألفاظ إلى تلك القائمة على الحركات ومن ذلك ماروى الكسائي"اجتمعت أنا وأبو يوسف القاضي عند هارون الرشيد، فجعل أبو يوسف يذم النحو ويقول:وما النحو؟، فقلت: -وأردت أن أعلمه فضل النحو-ما تقول في رجل قال لرجل:أنا قاتلُ غلامك،وقال له آخر:أنا قاتلٌ غلامك،أيهما كنت تأخذ به؟ قال:آخذهما جميعا،فقال له هارون:أخطأت،وكان له علم بالعربية، فاستحيا وقال:كيف ذلك؟ قال:الذي يؤخذ بقتل الغلام هو الذي قال:أنا قاتلُ غلامك بالإضافة لأنه فعل ماض،وأما الذي قال:أنا قاتلٌ غلامك بالنصب فلا يؤخذ لأنه مستقبل لم يكن بعد كما قال عزوجل وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ73.فلولا التنوين مستقبلا ما جاز فيه غدا،فكان أبو يوسف بعد ذلك يمدح العربية والنحو"[74]

كما عرض المبرد في خضم تعليقه على الأبيات الشعرية للعديد من قضايا البلاغة وفنون القول،فيشير إلى ما فيه من استعارة أو التفات أو إيجاز أو إطناب أو تقديم أو تأخير، وقد تطرق للكناية حيث يقول:"والكناية تقع على ثلاثة أضرب:

أحدها التعمية والتغطية ،كقوله:

أكني بغير اسمها وقد علم اللـه حقيات كل مكتتم

ويكون من الكناية-وذاك أحسنها-الرغبة عن اللفظ الخسيس المفحش إلى ما يدل على معناه من غيره وها كثير

والضرب الثالث من الكناية:التفخيم والتعظيم"75

وهو يعد أول من فصل في التشبيه؛فيقول:"والعرب تشبه على أربعة أضرب:فتشبيه مفرط،وتشبيه مصيب،وتشبيه مقارب،وتشبيه بعيد يحتاج إلى التفسير ولا يقوم بنفسه،وهو أخشن الكلام." 76

ثعلب(291ه) في كتابه قواعد الشعر

أطلق ثعلب على كتيبه الصغير قواعد الشعر وهي عنده أربعة أمر ونهي وخبر واستخبار ممثلا لها وشارحا إياها

كما تحدث عن المديح والهجاء والرثاء والاعتذار والتشبيب والتشبيه واقتصاص الأخبار

كما عرض لبعض وجوه البلاغة متحدثا عن الإفراط في الإغراق وهو المبالغة

وتطرق للكناية وسماها لطافة المعنى،والاستعارة،كما عرض لجزالة الألفاظ وجمال النظم،كما سمى الطباق مجاورة الأضداد وأطلق على الجناس اسم المطابق.

ميزات هذه المرحلة:

عدم التبويب العلمي

اضطراب مدلول المصطلحات

اختلاط قضايا البلاغة بالعلوم الأخرى

عدم وضوح علوم البلاغة الثلاثة

ب-مرحلة نمو الدراسات البلاغية

الكهف 2373

74ياقوت الحموي،معجم الأدباء ،تح:إحسان عباس،دار الغرب الإسلامي،لبنان،ط1 ،1993، ج4 ص 1742،1741

المبرد،الكامل ،تح:محمد أحمد الدالي، مؤسسة الرسالة ج2 ،ص 411، 412، [75]413

المبرد،الكامل ج3، ص [76]505

لقد كان ازدهار الدراسات البلاغية راجعا بصورة كبيرة إلى تلك التيارات الفكرية والمذاهب الدينية التي عملت على تطوير مفاهيمه،وتعميق مضامينه،إذ أدلى كل منهم برأيه،
ونحن سنقوم بتقسيم الجهود التي حامت حول البلاغة إلى لغويين وأدبيين ومتكلمين ونقاد وفلاسفة-وإن كانت هذه التقسيمات غير مطلقة ،فهم جميعا موسوعيون،لكننا آثرنا تصنيفهم وفق النمط الغالب عليهم
وهذه البيئات هي:

بيئة النقاد البلاغيين:ونجد كلا من:

ابن المعتز(296ه) في كتابه البديع

ألف ابن المعتز كتابه"ليعلم أن بشارا ومسلما وأبا نواس ومن تقيلهم وسلك سبيلهم لم يسبقوا إلى هذا الفن،ولكنه كثر في أشعارهم،فعرف في زمانهم حتى سمي بهذا الاسم فاعرب عنه ودل عليه"
فكانت الغاية التي وضع ابن المعتز كتابه هي الرد على من ادعى انه قد أحدث هذا الأمر وهو لا يعدو أحد أمرين:إما أنه لم يتعمق في الأدب العربي وأصوله،وإما أنه شعوبي ينوي نزع أي مزية عن العرب
وقد جعل البديع خمسة أقسام وهي:
-الاستعارة
-الجناس
-المطابقة أو الطباق
رد أعجاز الكلام على ما تقدمها وهي عنده ثلاثة أقسام: منها ما يوافق آخر كلمة منه أول كلمة كقول الشاعر

سريع إلى ابن العم يشتم عرضه وليس إلى داعي الندى بسريع

-المذهب الكلامي
ثم تكلم عن محاسن الكلام فجعلها ثلاثة عشر وهي :الالتفات، الاعتراض،الرجوع،الخروج من معنى إلى معنى،تأكيد المدح بما يشبه الذم،الهزل يراد به الجد،التضمين،التعريض والكناية،الإفراط في الصفة،حسن التشبيه،إعنات الشاعر نفسه في القوافي وتكلفه من ذلك ما ليس له وحسن الابتداءات

ابن طباطبا(322) في كتابه عيار الشعر

يبدو تأثر ابن طباطبا بالجاحظ جليا من خلال ترديده للعديد من ألفاظه،وتكراره العديد من آرائه ،وخاصة ما تعلق منها بضرورة ملاءمة الكلام لمقتضى الحال،إذ يطلب من المتكلم أن لا يخلط بين أسلوب حضري وآخر بدوي وأن يلائم بين كلامه ومن يخاطبهم من السامعين والمبحث البلاغي الذي استقصاه ابن طباطبا كثيرا هو حديثه عن التشبيه إذ قسمه كما يلي:
-تشبيه الشي ء بالشيء صورة وهيئة كقول امرئ القيس:

كأن عيون الوحش حول خبائنا وأرحلنا الجزع الذي لم يثقب

-تشبيه الشيء بالشيء لونا وصورة كتشبيه الثغر بالأقحوان
-تشبيه الشيء بالشيء صورة ولونا وحركة وهيئة ،كقول القائل"الشمس كالمرآة في كف الأشل
-تشبيه الشيء بالشيء حركة وهيئة كقول الأعشى:

كأن مشيتها من بين جارتها مر السحاب لاريث ولا عجل
-تشبيه الشيء بالشيء معنى لا صورة كتشبيه الشجاع بالأسد
-تشبيه الشيء بالشيء حركة وبطئا وسرعة كقول امرئ القيس:
مكر مفر مقبل مدبر معا كجلمود صخر حطه السيل من عل
-تشبيه الشيء بالشيء لونا كتشبيه الخمر بلون الذبيح
-تشبيه الشيء بالشيء صوتا كتشبيه صون النبال في الحروب بصوت الثكالى
كما تكلم ابن طباطبا عن الكناية وسماها التعريض
كما يبدو تأثره بابن قتيبة انطلاقا من حديثه عن الألفاظ والمعاني إذ قسم الكلام وفقهما إلى:
-ما حسن لفظه وجاد معناه،
-ما حسن لفظه دون معناه.
وما حسن معناه دون لفظه .
وما تأخر لفظه ومعناه.
ويعرض لكل صنف من ذلك مجموعة من الأبيات
كما يتحدث ابن طباطبا على ضرورة موافقة المبنى للمعنى يقول في هذا:"أحسن الشعر ما ينتظم القول فيه انتظاما ينسق به أوله مع آخره على ما ينسقه قائله...بل يجب أن تكون القصيدة كلها ككلمة واحدة في اشتباه أولها بآخرها نسجا وحسنا وفصاحة وجزالة ألفاظ ودقة معان وصواب تأليف.

الآمدي (371) في كتابه الموازنة

يستهل الآمدي كتابه ببيان المذاهب الشعرية التي سادت عصره وهم المطبوعون والمتكلفون
فالمطبوعون هم الذين لا يكلفون أنفسهم صناعة الشعر بل يتركون قرائحهم تجود على سجيتها
وأما المتكلفون فهم الذين يغرقون في استجلاب المعاني الغامضة ومما يستدعي شرحا وتفسيرا،ويتكلفون أيضا في بناء الصور والمحسنات اللفظية والمعنوية
والمذهب الأول هو مذهب البحتري ويدعمه الكتاب والشعراء المطبوعون وأهل البلاغة
.وأما المذهب الثاني فيتزعمه أبو تمام ويعضده أصحاب الفلسفة والمنطق والمعاني العويصة
وهو في أثناء موازنته بين الشاعرين يعرض لعديد القضايا البلاغية التي نذكر منها:
-الاستعارة: في خضم حديثه عن الاستعارات القبيحة عند أبي تمام معللا قبحها إلى ما يرجع فيها من كثرة التشخيص كقوله:
يادهر قم من أخدعيك فقد أضججت هذا الأنام من خرقك
-الجناس:في خضم حديثه عن الجناسات التي خان فيها التوفيق أبا تمام وسببه الإفراط في ذلك
-الطباق :أثناء حديثه عن الطباقات التي أساء فيها أبو تمام
كما يتحدث عن سوء نظم أبي تمام من خلال التعقيد في الألفاظ أو الغريب في المعنى إذ البلاغة عنده"إصابة المعنى وإدراك الغرض بألفاظ سهلة عذبة مستعملة سليمة من التكلف،لا يبلغ الهذر الزائد على قدر الحاجة،ولا تنقص نقصانا يقف دون الغاية،فإن اتفق مع

هذا معنى لطيف أو حكمة غريبة أو أدب حسن فذلك زائد في بهاء الكلام، وإن لم يتفق فقد قام الكلام بنفسه واستغنى عما سواه"[77]

عبد العزيز الجرجاني(392ه)في كتابه الوساطة

لقد كان الجرجاني قاضيا ولهذا أراد أن ينصب نفسه حكما بين المتنبي وخصومه،إذ ذاع صيته وطارت شهرته،مما جعل الكثير من النقاد يصبون جام غضبهم عليه،واشتدت الخصومة بينهم ،ف"فأثار حفيظة معاصريه من النقاد في كل مكان ،أثار حفيظة ابن خالويه اللغوي وأضرابه في بلاط سيف الدولة بحلب،وأثار حفيظة النقاد المصريين حين حل في الفسطاط،مما جعل ابن وكيع يؤلف في سرقاته وشعره كتابه "المنصف"،وأثار حفيظة النقاد البغداديين حين نزل بغداد،مما جعل الحاتمي يؤلف فيه رسالتين:سمى إحداهما الموضحة...وأثار حفيظة نقاد مدينة الري حين دخلها لمديح عضد الدولة ووزيره ابن العميد،مما جعل الصاحب بن عباد يكتب رسالة في الكشف عن مساويه"[78]

ومما جادت به قريحته في الدرس البلاغي ما يلي

-إقرارة بضرورة أن يكون لكل موضوع ما يناسبه ويشاكله من اللفظ

-تفريقه بين الاستعارة والتشبيه-وإن كان يرى أن الاستعارة من أبواب البديع-حيث يقول: "وربما جاء من هذا الباب ما يظنه الناس استعارة وهو تشبيه أو مثل،فقد رأيت بعض أهل الأدب ذكر نوعا من الاستعارة عد فيها قوا أبي نواس:

والحب ظهر أنت راكبه فإذا صرفت عنانه انصرفا

ولست أرى هذا وما أشبهه استعارة،وإنما معنى البيت أن الحب مثل ظهر أو الحب كظهر تديره كيف شئت إذا ملكت عنانه،فهو إما ضرب مثل أو تشبيه شيء بشيء"[79]

-كما يذكر التجنيس ويقسمه قسمين:مطلق ومستوفي والأول هو ما سماه البلاغيون بعده باسم جناس الاشتقاق ،وأما الثاني فهو الذي أطلقوا عليه الجناس الكامل ومن أمثلته قول الشاعر:

ما مات من مكرم الزمان فإنه يحيا لدى يحيى بن عبد الله[80]

كما تحدث الجرجاني عن الغلو والمبالغة فيقول:أما الإفراط فمذهب عام في المحدثين،وموجود كثير في الأوائل،والناس فيه مختلفون،فمستحسن قابل ومستقبح راد"[81]

-كما يتكلم عن التشبيه حيث يقول:إن التشبيه والتمثيل قد يقع تارة بالصورة والصفة وأخرى بالحال والطريقة...وللشعراء في التشبيه أغراض،فإذا شبهوا بالشمس في موضع الوصف بالحسن أرادوا به البهاء والرونق والضياء ونصوع اللون والتمام،وإذا ذكروه في الوصف بالنباهة والشهرة أرادوا به عموم مطلعها وانتشار شعاعها واشتراك الخاص والعام في معرفتها وتعظيمها"[82] يقول شوقي ضيف معلقا على هذا"وهي نظرة كسابقتها تشفع بتحليل

---

[77] الآمدي:أبو القاسم الحسن بن بشير،الموازنةبين شعر أبي تمام والبحتري،تح:السيد أحمد صقر،دار المعارف،القاهرة،مصر،ط4،ج1،ص 424

[78] شوقي ضيف، البلاغة تطور وتاريخ، دار المعارف،مصر ط8 ص 122.123

[79] االجرجاني:القاضي علي بن عبد العزيز،لوساطة بين المتنبي وخصومه،تح:محمد أبو الفضل،إبراهيم على محمد البجازي،المكتبة العصرية،لبنان ط1(1427ه، 2006م)ص 45

[80] ينظر: الجرجاني:القاضي علي بن عبد العزيز،لوساطة بين المتنبي وخصومه ص46

[81] نفسه ص 348

[82] نفسه ص 474

دقيق لوجه التشبيه،وكيف أن المشبه به يكون شيئا واحدا،ويختلف وجه الشبه باختلاف غرض القائل"[83]

طائفة الأدباء:ونجد كلا من:

أبو هلال العسكري(395) في كتبه الصناعتين

يبتدئ أبو هلال العسكري كتابه بالتنويه بأهمية علم البلاغة؛ ذلك أنه أحد المداخل المهمة لمعرفة إعجاز القرآن الكريم حيث يقول:"إن أحق العلوم بالتعلم،وأولاها بالتحفظ،بعد المعرفة بالله جل ثناؤه،علم البلاغة،ومعرفة الفصاحة،الذي به يعرف إعجاز كتاب الله تعالى"[84]

ولقد ألف كتابه ليسد النقص الذي احتواه كتاب البيان والتبيين للجاحظ حيث يقول:"إن الإبانة عن حدود البلاغة وأقسام البيان والفصاحة مبثوثة في تضاعيفه ومنتشرة في أثنائه،فهي ضالة بين الأمثلة لا توجد إلا بالتأمل الطويل والتصفح الكثير"[85]

وقد قسم العسكري كتابه عشرة أبواب،حيث جعل الباب الأول للكلام عن حدود البلاغة عند من سبقوه

وأما الباب الثاني فجعله لتمييز الكلام جيده من رديئه

وأما الباب الثالث فجعله في معرفة صنعة الكلام وترتيب الألفاظ

وأما الباب الرابع فجعله للحديث عن حسن النظم وجودة الرصف

وأما الباب الخامس فجعله للإيجاز والإطناب

وأما الباب السادس فجعله للسرقات الشعرية

وأما الباب السابع فجعله للتشبيه ،وهنا يستمد تقسيمات كل من الرماني وابن طباطبا، و يقرر العسكري أنه لا يصح تشبيه الشيء بالشيء جملة، لأنه لو أشبه الشيء الشيء من جميع جهاته لكان إياه، و لذلك فالتشبيه هو: "الوصف بأن أحد الوصفين ينوب مناب الآخر بأداة التشبيه، ناب منابه، أو لم ينب..."86. ، وهو يأتي على ثلاثة أوجه:

الأول: تشبيه شيئين متفقين من جهة اللون مثل تشبيه الليلة بالليلة.

الثاني: تشبيه شيئين متفقين يعرف اتفاقهما بدليل كتشبيه الجوهر بالجوهر.

الثالث: تشبيه شيئين مختلفين لمعنى يجمعهما كتشبيه البيان بالسحر.

و بعد أن ذكر هذه الأقسام أراد أن يرتقي بدراسته فيتعمق في أجود أنواعه وأبلغها فاستقر أمره على الأوجه الأربعة التالية:

1- إخراج ما لا تقع عليه الحاسة إلى ما تقع عليه الحاسة.

2- إخراج ما لم تجر به العادة إلى ما جرت به العادة.

3- إخراج ما لم يعرف بالبديهة إلى ما يعرف بها.

4- إخراج ما لا قوة له في الصفة إلى ما له قوة فيها.

وهذه الأنواع هي ما ذكرها الرماني وأسهب في تفصيلها والاستشهاد لها،ولهذا يمكننا أن نقر أن أبو هلال العسكري لم يضف شيئا لها سوى الإعادة والتكرار،وهو ما ذهب إليه بعض الدارسين من كونه جماع مباحث من سبقوه

---

[83] شوقي ضيف، البلاغة تطور وتاريخ ص 139

[84] العسكري:أوهلال الصناعتين،ط1، 1320ه، ص2

[85] العسكري:أبو هلال الصناعتين ص5

[86] نفسه ص180

و الجديد عند أبو هلال العسكري أمران:الأول الإكثار من الأمثلة قرآنية وغير قرآنية والثاني أنه بين القبيح و الحسن من التشبيه ، و الرديء و الجيد في أمثلة عديدة، معللا كل ما توصل إليه بطريقة منهجية تجعل متلقيه يقتنع بما يذهب إليه

وأما الباب الثامن فجعله للسجع والازدواج

وأما الباب التاسع فجعله لفنون البديع وهي عنده خمسة وثلاثون فنا وهي:

الاستعارة،الطباق، الجناس، الكناية والتعريض، رد الأعجاز على الصدور، الالتفات، الاعتراض، الرجوع، تجاهل العارف، المذهب الكلامي، المقابلة، صحة التقسيم، صحة التفسير،الإشارة،الأرداف والتوابع،الغلو،المبالغة، العكس والبديل،الترصيع،الإيغال،التوشيح،التكميل والتتميم،التشطير، المحاورة، التطريز،المضاعف،الاستشهاد،التلطف ،المماثلة، التذييل، الاستطراد،جمع المؤتلف والمختلف،السلب والإيجاب،الاستثناء والتعطف

ابن رشيق القيرواني(463) في كتابه العمدة

تطرق في كتابه إلى العديد من القضايا البلاغية منها

-حديثه عن اللفظ والمعنى وإقراره بضرورة تلازمهما

-عرضه لتعريفات البلاغة خاصة تلك المبثوثة في كتاب البيان والتبيين

-جعل بابا للإيجاز وآخر للبيان وآخر للنظم

-يتكلم عن البديع وفنونه مستهلا فنونه بالمجاز ومؤكدا على أنه أبلغ من الحقيقة

-حديثه عن الاستعارة

-حديثه عن التشبيه حيث يعرفه بأنه: " صفة الشيء بما قاربه أو شاكله، من جهة واحدة، أو جهات كثيرة، لا من جميع جهاته،لأنه لو ناسبه مناسبة كلية لكان إياه"87. و هذا التحديد لا يخرج – كما يبدو – عن التطور العام للتشبيه، ذلك التصور القائم على التمايز بين الطرفين، و العناية بالشكل و الصبغة.88

فابن رشيق يعدد أنواع التشبيه الذي يأتي على ضربين: حسن و قبيح." والتشبيه الحسن هو الذي يخرج الأغمض إلى الأوضح فيفيد بيانا، والتشبيه القبيح ما كان على خلاف ذلك ،فما تقع عليه الحاسة أوضح في الجملة مما لا تقع عليه الحاسة، و المشاهد أوضح من الغائب... و سبيل التشبيه عنده، إذا كانت فائدة إنما تقريب المشبه من فهم السامع و إيضاحه له، أن تشبه الأدنى بالأعلى إن أردت مدحه"89، أو بالعكس، و يعرض لأصل التشبيه مع دخول الكاف و أمثالها و يذكر منه تشبيه متعدد بمتعدد، أي اثنين باثنين، و ثلاثة بثلاثة، و أربعة بأربعة، و خمسة بخمسة.

ابن سنان الخفاجي(466) في كتابه سر الفصاحة

من خلال عنوان كتابه ندرك أن مؤلفه سيخصص الجانب الأكبر منه للحديث عن الفصاحة وما يتعلق بها

ويبدأ في مؤلفه في الكلام عن الفصاحة بالحديث عن الأصوات ومخارجها وتأليفها وكأنه بصنيعه هذا يلمح إلى أن الفصاحة مرتبطة بالمتكلم أكثر منا بأي شيء آخر

---

87 القيرواني:ابن رشيق ،العمدة في محاسن الشعر،ج1، ص287

88 نفسه ،ج1 ص343

89ابن رشيق، العمدةج1 ص 287

ولقد فرق بين الفصاحة والبلاغة فجعل الفصاحة مختصة بالألفاظ بينما البلاغة مختصة بالألفاظ والمعاني[90]

ثم تكلم عن شروط فصاحة اللفظة المفردة فجعلها ثمانية وهي:أن تؤلف من حروف متباعدة المخارج،وأن تحسن في السمع،وأن تكون غير وحشية،وأن تكون غير ساقطة عامية،وأن تكون جارية على العرف العربي،وأن لا يكون معناها القديم قد هجر،وأن لا تكون كثيرة الحروف،وان لا تصغر تصغير تعظيم

كما تكلم عن شروط فصاحة الكلام ورأى أنها نفسها تلك الثمانية المتعلقة بالكلمة المفردة

كما تطرق للاستعارة والتشبيه وبعض صور البديع الأخرى كالاعتراض والتتميم والإيغال،و رد الأعجاز على الصدور ،والتوشيح

كما تكلم عن المناسبة بين الألفاظ إما من طريق الصيغة أو من طريق المعنى

كما أنه لم يفرق بين الفواصل القرآنية والسجع رادا بذلك على الرماني

طائفة المتكلمين:ونجد كلا من:

الرماني(386) في رسالته النكت في إعجاز القرآن

ألف الرماني رسالته ليرد على شخص طلب منه تفسير تلك النكت الدالة على إعجاز القرآن الكريم وبصورة مجملة،فجعلها الرماني سبعة أوجه وهي:"ترك المعارضة مع توفر الدواعي وشدة الحاجة والتحدي للكافة والصرفة والبلاغة و الأخبار الصادقة عن الأمور المستقبلة ونقض العادة وقياس القرآن بكل معجزة"[91]

وما يهمنا من هذه الأمور ما تعلق منها بالبلاغة

فالبلاغة عند الرماني ثلاث طبقات: عليا ،ووسطى ،ودنيا؛ والعليا هي بلاغة القرآن ،والوسطى والدنيا هي بلاغة البلغاء حسب درجات تفاوتهم في البلاغة.

وقد جعل البلاغة عشرة أقسام وهي:

الإيجاز وقسمه إلى إيجاز حذف وإيجاز قصر

التشبيه وعرفه بقوله:" العقد على أن أحد الشيئين يسد مسد الآخر في حس أو عقل"[92]

الاستعارة وهي "تعليق العبارة على غير ما وضعت له في أصل اللغة على جهة النقل للإبانة"[93]

التلاؤم وهو عنده "تعديل الحروف في التأليف"[94]

الفواصل وعرفها :"حروف متشاكلة في المقاطع توجب حسن إفهام المعاني"[95]

التجانس وقال فيه:"تجانس البلاغة هو بيان بأنواع الكلام الذي يجمعه أصل واحد في اللغة"[96]

التصريف وهو"تصريف المعنى في المعاني المختلفة،كتصريفه في الدلالات المختلفة"[97]

---

[90] ينظر:الخفاجي:ابن سنان،سر الفصاحة، ص59

[91] الرماني،النكت في إعجاز القرآن،ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن، تح:محمد خلف الله وآخرون،دار المعارف،القاهرة،ط3،ص75

[92] نفسه ص80

[93] نفسه ص85

[94] الرماني،النكت في إعجاز القرآن ص94

[95] نفسه ص97

[96] نفسه ص99

التضمين: يقول فيه"تضمين الكلام هو حصول معنى فيه من غير ذكر له"[98]
المبالغة وهي:"الدلالة على كبر المعنى على جهة التغيير عن أصل اللغة لتلك الإبانة"[99]
البيان وهو:"الإحضار لما يظهر به تميز الشيء من غيره في الإدراك"[100]

الباقلاني(403ه) في كتابه إعجاز القرآن:

ألف الباقلاني كتابه ليرد على الطاعنين في القرآن الكريم،حيث يرى أن إعجازه يكمن في ثلاثة أشياء:

-الإخبار عن الغيوب
-القصص الديني وسير الأنبياء
-بديع نظم القرآن،وعجيب تأليفه،وتناهيه في البلاغة[101]

و القضايا البلاغية التي تطرق إليها في ثنايا كتابه سماها وجوه البديع هي: الاستعارة،التشبيه ،المماثلة، المطابقة، المجانسة،الموازنة،المساواة،الإشارة،المبالغة ،الإيغال،التوشيح ،صحة التفسير،التتميم والترصيع، الكناية والتعريض،العكس والتبديل والالتفات[102].

كما عقد فصلا لخص فيه الوجوه العشرة للبلاغة التي ذكرها الرماني

ويخلص في الأخير إلى النتيجة التالية:" لا سبيل إلى معرفة إعجاز القرآن من البديع الذي ادعوه في الشعر ووصفوه فيه،وذلك أن هذا الفن ليس فيه ما يخرق العادة ويخرج عن العرف،بل يمكن استدراكه بالتعلم والتدرب به والتصنع له،كقول الشعر، ورصف الخطب،وصناعة الرسالة،والحذق في البلاغة،وله طريق يسلك،ووجه يقصد،وسلم يرتقى فيه إليه،ومثال قد يقع طالبه عليه...أما شأو نظم القرآن فليس له مثال يحتذى عليه ولا إمام يقتدى به ولا يصح وقوع مثله اتفاقا"[103]

القاضي عبد الجبار(415) في كتابه المغني في أبواب التوحيد والعدل

ففي حديثه عن البلاغة عقد فصلين أحدهما ذكر فيه رأي شيخه أبي هشام الجبائي في الفصاحة وفي الثاني رأيه الخاص الذي به يقع تفاضل كلام على آخر حيث يقول :"قال شيخنا أبو هشام: إنما يكون الكلام فصيحا لجزالة لفظه وحسن معناه، ولابد من اعتبار الأمرين ،لأنه لو كان جزل اللفظ ركيك المعنى لم يعد فصيحا"[104]وكلام أبي هشام صريح في أن النظم لا يصلح أن يكون مفسرا بفصاحة الكلام لأن النظم قد يكون واحدا ويفضل أديب صاحبه فيه وكأنه يرد بذلك على الجاحظ وأمثاله الذين يرجعون إعجاز القرآن إلى نظمه وطريقته ويقول إنه لا يوجد في كلام إلا اللفظ والمعنى ولاثالث لهما وإذا كان لابد أن تكون الفصاحة راجعة إليهما بحيث يكون اللفظ جزلا والمعنى حسنا"[105] ويحاول القاضي عبد الجبار إدراك النقص في أستاذه فيضيف النظم الى الفصاحة فيقول :"إن العادة لم تجر بأن يختص واحد بنظم دون غيره ،فصارت الطرق التي عليها يقع نظم الكلام الفصيح معتادة كما

---

[97] نفسه ص101
[98] نفسه ص102
[99] نفسه ص104
[100] نفسه ص106
[101] ينظر:الباقلاني،إعجاز القرآن،تح:السيد أحمد صقر،دار المعارف،مصر ص35
[102] ينظر:نفسه ص 69 وما بعدها
[103] نفسه ص 111،112.
[104] القاضي عبد الجبار،المغني ج16 ص197
شوقي ضيف،البلاغة تطور وتاريخ، ، ص 115- 116105

أن قدر الفصاحة معتادة فلا بد من مزية فيهما ولذلك لا يصح عندنا أن يكون اختصاص القرآن بطريقة في النظم دون الفصاحة التي هي جزالة اللفظ وحسن المعنى ومتى قال قائل إني وإن اعتبرت طريقة النظم فلابد من اعتبار المزية في الفصاحة فقد عاد إلى ما أردناه"[106]، والقاضي برأيه هذا يكون قد رد على الباقلاني وغيره من الأشعرية ويتفق مع أستاذه الرماني ومن نحا نحوهم من المعتزلة في طريق بسط بلاغة الألفاظ والمعاني وتبيين وجوهها مضيفا فكرة ترتيب الكلام التي اعتبرها أساسية في بلاغتها وفصاحتها وفي هذا يقول: "اعلم أن الفصاحة لا تظهر في أفراد الكلام وإنما تظهر في الكلام بالضم على طريقة مخصوصة ولابد مع الضم من أن يكون لكل كلمة صفة وقد يجوز في هذه الصفة أن تكون بالمواضعة التي تتناول الضم وقد تكون بالإعراب الذي له مدخل فيه وقد تكون بالموضع وليس لهذه الأقسام الثلاثة رابع....قال فقد قلتم إن في جملة ما يدخل في الفصاحة حسن المعنى فهل اعتبرتموه؟ قيل له: إن المعاني وإن كان لابد منها فلا تظهر فيها المزية ولذلك تجد المعبرين عن المعنى الواحد يكون أحدهما أفصح من الآخر والمعنى متفق على أن نعلم أن المعاني لا يقع فيها تزايد فإذن يجب أن يكون الذي يعتبر التزايد عند الألفاظ التي يعبر بها عنها فإذا صحت هذه الجملة فالذي تظهر به المزية ليس إلا الإبدال الذي به تختص الكلمات أو التقدم أو التأخر الذي يختص الموقع او الحركات التي تختص الإعراب فبذلك تقع المباينة...وهذا يبين أن المعتبر في المزية ليس بنية اللفظة وأن المعتبر فيه ماذكرنا من الوجوه فأما حسن النغم وعذوبة القول فمما يزيد الكلام حسنا على السمع لا أنه يوجد فضلا في الفصاحة."[107]

3-مرحلة ازدهار الدراسات البلاغية:ويمثل هذه المرحلة :

عبد القاهر الجرجاني(471) في كتابيه دلائل الإعجاز وأسرار البلاغة

وأهم ما جاء به "نظرية النظم" حيث يبتدئ صاحب كتاب دلائل الإعجاز-بعد حمد الله والصلاة على رسوله مباشرة-بقوله"هذا كلام وجيز يطلع به الناظر على أصول النحو جملة، وكل ما به يكون النظم دفعة....معلوم أن ليس النظم سوى تعليق الكلم بعضها ببعض، وجعل بعضها بسبب من بعض، والكلم ثلاث: اسم وفعل وحرف، وللتعليق فيما بينها طرق معلومة، وهو لا يعدو ثلاثة أقسام:تعلق اسم باسم، وتعلق اسم بفعل، وتعلق حرف بهما"[108]

ولعل عبد القاهر بصنيعه هذا قد أعطى المفاتيح التي يمكن من خلالها فك أغلال هذه النظرية وهي:النظم، النحو، والتعلق، وسيرتبط النحو بالنظم ويكون عموده الفقري ومتكأه الوحيد الذي يعتمد عليه، أما التعلق فهو الصورة التي يكون عليها ذلك البناء.

ثم يقر في مرحلة ما مفهوم النظم بصورة صريحة فيقول"اعلم أن ليس النظم إلا أن تضع كلامك الوضع الذي يقتضيه علم النحو وتعمل على قوانينه وأصوله، وتعرف مناهجه التي نهجت فلا تزيغ عنها، وتحفظ الرسوم التي رسمت لك فلا تخل بشيء منها"[109]

الزمخشري(538ه) في كتابه الكشاف حيث طبق نظرية النظم لعبد القاهر الجرجاني

د-مرحلة الجمود:ويمثل هذه المرحلة كل من:

الرازي (544ه) في كتابه نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز

---

106 القاضي عبد الجبار،المغني ج16، ص197- 198

107 نفسه ج16ص 200

108 عبد القاهر الجرجاني، دلائل الأعجاز ص ص4.3

109 نفسه ص81

ألف الرازي كتابه ليجمل فيه ما طرحه عبد القاهر الجرجاني في كتابيه دلائل الإعجاز وأسرار البلاغة ويعيد ترتيب فصولهما واختصارها؛حيث رأى أن عبد القاهر الجرجاني"أهمل رعاية ترتيب الأصول والأبواب،وأطنب في الكلام على الإطناب"فقال:"ولما وفقني الله لمطالعة هذين الكتابين التقطت منهما معاقد فوائدها ومقاصد فرائدها،وراعيت الترتيب مع التهذيب،والتحرير مع التقرير،وضبطت أوابد الإجمالات في كل باب بالتقسيمات اليقينية،وجمعت متفرقات الكلم في الضوابط العقلية، مع الاجتناب عن الإطناب الممل،والاحتراز عن الاختصار المخل"[110]

وقد برر إعجاز القرآن في فصاحته-وهو هنا لا يفرق بين البلاغة والفصاحة مثل عبد القاهر الجرجاني- ورأى أن الفصاحة إما:

-أن تكون راجعة إلى مفردات الكلام وهنا بحث الصور البانية والمحسنات اللفظية كالمطابقة والمقابلة والمزاوجة والاعتراض والالتفات والاقتباس والتلميح والإيهام وتجاهل العارف والمبالغة والجمع والتقسيم.

-أن تكون راجعة إلى تأليف الكلام وتركيبه وهنا تكلم عن التقديم والتأخير والفصل والوصل والحذف والإضمار والإيجاز.

السكاكي (626) في كتابه مفتاح العلوم

وتطرق فيه إلى تعريف علم المعاني وعلم البيان،وفصل أبوابهما كما هو معروف عندنا الآن.

فعلم المعاني عنده هو:"تتبع خواص تراكيب الكلام في الإفادة ، وما يتصل بها من الاستحسان وغيره ،ليحترز بالوقوف عليها عن الخطأ في تطبيق الكلام على ما يقتضي الحال ذكره"[111]وذكر أبوابه وهي الخبر والطلب المسند والمسند إليه وأحوالهما والفصل والوصل والإيجاز والإطناب وأسلوب القصر:

وأما علم البيان عنده فهو:"معرفة إيراد المعنى الواحد في طرق مختلفة، بالزيادة في وضوح الدلالة عليه ،وبالنقصان ليحترز بالوقوف على ذلك عن الخطأ في مطابقة الكلام لتمام المراد منه"[112]وتكلم عن أبوابه وهي المجاز والتشبيه والاستعارة والكناية

أما المحسنات البديعية فلم يجعلها علما خاصا –تكفل بذلك بدر الدين بن مالك في كتابه المصباح في علوم المعاني والبيان والبديع -وهي عنده المطابقة والمقابلة والمشاكلة ومراعاة النظير والمزاوجة واللف والنشر والجمع والتفريق والتقسيم والجمع مع التفريق والجمع مع التقسيم والجمع مع التفريق والتقسيم والإبهام وتأكيد المدح بما يشبه الذم والتوجيه وسوق المعلوم مساق غيره والتجنيس والاشتقاق ورد العجز على الصدر والقلب والسجع والترصيع وهنا أغلق الباب في البحث البلاغي ،فما أتى بعد السكاكي يعد تلخيصا أو شرحا ومثال ذلك:

-ابن مالك686 صاحب كتاب المصباح في علوم المعاني والبيان والبديع وهو تلخيص لكتاب المفتاح

-الخطيب القزويني 739سمى كتابه التلخيص وهو تلخيص لكتاب المفتاح ثم ألف كتابه الثاني "الإيضاح"وهو تلخيص لكتابه التلخيص

---

[110] الرازي،نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز،تح:نصر الله حاجي ،دار صادر،بيروت ط1(1424ه، 2004م)ص25

[111] السكاكي، مفتاح العلوم، تح:نعيم زرزور،دار الكتب العلمية،بيروت ط2(1407ه،1987)ص161

[112] نفسه ص126